Coptology

التمايز في شرح العقيدة المسيحية

(٢)

بين الأرثوذكس؛ وبين الشرق والغرب

دكتور

رؤوف إدوارد

٢٠١٧

www.coptology.org

التمايز في شرح العقيدة المسيحية (٢)

بين الأرثوذكس؛ وبين الشرق والغرب

اللاهوت المسيحي، بدايةً، شرَح عمل المسيح على الصليب كما قال آباء الشرق بحسب ما جاء في الإنجيل من أن الصليب هو إعلان عن محبة الله ''لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ'' (يوحنا ٣:١٦) وفي القرن السادس عشر لجأ قادة حركة الإصلاح في أوروبا إلى نظريات عقلية قانونية إستحدثوها تقول بأن الصليب كان لإستيفاء العدل الإلهي مستخدمين في ذلك نفس المصطلحات اللاهوتية المشتركة التي وردت في الكتاب المقدس مثل: فداء – كفارة – بر .. إلخ، وذلك بهدف القضاء على إنحرافات كنيسة العصر الوسيط والتي تمثلت في: المطهر – صكوك الغفران – المفهوم الخاص عن الإفخارستيا {كشرح الكنيسة الرومانية في منشورها عام ١٠٥٩ ''الإفخارستيا بشكل منظور و ليس بطريقة سرية نري دم المسيح في يد الكهنة و يُمضَغ جسده بأسنان المؤمنين''} – والفهم الخاص عن سلطان الكهنوت {متمثلاً في صلاة التحليل اللاتينية القديمة ''بموجب السلطان المعطي لي من الكنيسة أنا أحللك من خطاياك بإسم الآب والإبن والروح القدس. وهي تختلف عن الصيغة الأرثوذكسية: اللهم حاللنا و حالل كل شعبك''}.

وعن طريق إستحداث نظرية ''عقيدة الكفارة'' إستطاع قادة حركة الإصلاح هدم: المطهر – صكوك الغفران – سلطان الكهنوت في كنيسة العصر الوسيط: ''إذا كان المطهر هو عبارة عن تكفير للخطايا أو أن يوفي الإنسان ديونه للعدل الإلهي، فما لزوم الكفارة وهي عمل المسيح وحده الذي وفَّى كل مطالب العدل الإلهي'' (مارتن لوثر). وقد أدى هذا الإستحداث بقادة حركة الإصلاح إلى التساؤل: ''إذا كان الرب قد أكمل وأتم الخلاص في الصليب يوم الجمعة، فما هي فائدة ودور الأسرار الكنسية مثل التناول؟

وبذلك وَضَع المذهب البروتستاني نهاية حاسمة لتعليم لاهوت العصر الوسيط، وذلك بالتأكيد على نظرية لاهوتية قانونية بأن المسيح دفع ثمن خطايانا على الصليب لله الآب ترضيةً له ولعدله ولغضبه على خطية الإنسان، و ذلك بأن تحمَّل العقاب عوضاً أوكبديل عن الخطاة. و هكذا ظهرت النظرية اللاهوتية ''موت المسيح النيابي أو البدل العقابي''.

واستمر هذا الإستحداث اللاهوتي النظري الذي بدأ بفكرة أن الله دفع الغرامة إلى الله، أي أن العمل يبدأ بالله وينتهي بالله، وبالتالي ليس على الإنسان إلا أن يؤمن بما حدث علي الصليب. و هكذا نشأ ''التبرير بالإيمان'' عند البروتستانت والذي أدى إلى إقتلاع الأسرار الكنسية من جذورها في تعليمهم. فالأسرار – وبشكل خاص الإفخارستيا – هي رموز وعلامات فقط تُذَّكِر المؤمنين بما فعله المسيح على الصليب.

أما اللاهوت الشرقي فلا يَعرف على الإطلاق مفاهيم العصر الوسيط الخاصة بهذه الكلمات (فدية؛ كفارة ..)، و إنما إنسجاماً ظاهراً بين معاني هذه الكلمات ومعانيها في الكتاب المقدس. لذلك لم تذكر الصلوات الأرثوذكسية (الليتورجية) تلك المعاني التي إستحدثتها تلك النظريات. فمن المعروف أن الليتورجية هي مرآة عِلم اللاهوت في الشرق. فالتعليم وشرح العقيدة الذي لا أساس له في الليتورجية لا أساس له في الأرثوذكسية. لأن الإيمان الذي لا يُعبَّر عنه في صلاة إنما هو إيمان عقلي وفكر خاص. هذا على الرغم من إضافة صلاة قسمة كاثوليكية في الخولاجي المقدس المطبوع بمعرفة مكتبة المحبة بعد عام ١٩٧٠م. و هي ليست موجودة بالخولاجي المقدس المحَقَّق بيد القمص عبد المسيح المسعودي في طبعته الأولي ١٩٠٢م. ومن بعده علي نفقة القمص عطالله أرسانيوس المحرقي ولا حتي طبعته الثانية ٢٠٠٢م. الصادرة من دير البراموس.

وكمثال لما سبق، نجد أن صلاة القداس الأرثوذكسي توضح أن الصليب جاء بعمل إيجابي وذلك بتجديد وإحياء الخليقة وردَّ الحياة لها بعد أن كانت مستعَبَدة للموت: ''والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس هدمته بالظهور المحي الذي لإبنك الوحيد

ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح''. ونجد أن إعلان العهد الجديد هو مصدر هذا الفهم الأرثوذكسي لعمل المسيح علي الصليب: ''فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ، ١٥ وَيُعْتِقَ أُولئِكَ الَّذِينَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعًا كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّةِ.'' (عبرانيين ٢:١٤).

فبينما نرى مما سبق أن المسيح مات علي الصليب لكي يبيد الموت، فإن نظرية الكفارة حسب إخوتنا البروتستانت تقول بأن الإبن قدَّم نفسه فدية للآب أو أرضَى مطالب العدل و قدَّم للآب فديةً هدَّأت غضبه وجعلته يرضى عن الإنسان. إن اللاهوت الأرثوذكسي يَفهم ''الفدية'' و''الكفارة'' التي قام بها المسيح – إقنوم الإبن المتجسد – ليس على أنه ثمن يدفعه الإبن للآب كعمل سلبي يعلو فوقه صلاح الله، لأنه يُحَوّل المسيح من الإقنوم المتجسد إلى ثمن – وهو مفهوم ساد في الفكر الغربي البروتستانتي أكثر من الكاثوليكي – ولكن يَفهم الفدية أنها عمل وقوة المسيح التي تحرر الإنسان وليست ثمناً يُدفَع أو دَيناً يُرَّد. وأيضاً يفهم ''الكفارة'' أنها تَعبير عن التطهير والغفران. فالله يكفر عن شعبه. أي يغفر و يستر الخطايا. وهو أيضاً يفتديه، أي يخلصه من يد الأعداء ومن السقوط في وهدة الهلاك.

فالمسيح أقنوم مساوي للآب و ليس ثمناً يُدفع للآب. وموت الرب علي الصليب هَدَم الموت و أزال العداوة. هذا هو المسيح ''الفادي'' الذي يَفدي، يَفُك، يُخلِّص ''قوتك فكَكَت بذراعك شعبك'' (مزمور ٧٧:١١). أو قل المسيح ''الفدية'' إن شئت، و لكن ليس بمفهوم الثمن بل بمفهوم عمله على الصليب في عتق وتحرير إقتناء الإنسان. كلها معاني تُعَبِّر عن الخلاص في معناه الشامل. وللعلم فإن العهد القديم لم يستخدم الإسم ''فدية'' في الكلام عن خلاص وفداء الله بل إستخدم دائماً الفعل ''يَفدي''، وأطلق إسم الفاعل ''فادي'' على الله نفسه. و لعل أول ما يخطر علي فكر القارئ بخصوص الفدية هو مفهوم ذبائح العهد القديم. و لكن هذا يتطلب بعض الشرح فيما بعد لا يتسع له المقال الآن.

وكمثال آخر، يصلي الأرثوذكس في الساعة السادسة ''يا من سُمرت علي الصليب من أجل الخطية التي تجرأ عليها أبونا آدم في الفردوس، مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا و نجنا .. قتلت الخطية بالخشبة أحييت الميت بموتك (آدم) .. من أجل هذا نمجد المسيح إلهنا لأنه قوي''. هنا أيضاً نرى اللاهوت الشرقي مستمَداً من إعلان العهد الجديد: ''وإِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ''(كولوسي ٢:٤). وفي هذا كله يُظهِر اللاهوت الشرقي أن المسيح مزق (ليس دفع) الصك. أهمية هذا الفهم هو موضوعنا القادم. والسبح لله.

د. رءوف ادوارد.